المبحث الثاني

الإيجـــازُ

أدركَ العربُ الأقدمونَ قيمةَ الإيجازِ باعتبارِه وسيلةً لحفظِ أدبهم وتراثِهم، إذ إنهم كانوا أمة تندرُ فيها الكتابةُ والقراءةُ، ولم يكن لها من وسيلةٍ لحفظِ موروثِها الفكريِّ واللغويِّ سوى ذاكرة أبنائها. والذاكرةُ مهما كانت قويةً فإنها لا تستطيعُ أن تستوعبَ كلَّ ما يقالُ، ومن هنا كانت الحاجةُ إلى الإيجازِ لدواعٍ حضاريةٍ، أما بعدَ إنشاءِ الدواوين وتولي كثير من الأدباءِ مهامَّ الكتابةِ فيها فقد أصبحَ الإيجازُ مطلباً بلاغيّاً، يستندُ إلى أسسٍ فنيةٍ.

فما الإيجازُ؟ ومتى يُعَدُّ ضرباً من البلاغةِ؟

وللإجابة عن هذين السؤالين فَلْنَنْظُر في الأمثلةِ الآتيةِ:

١ - يقولُ اللّه تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[١].

٢ - ويقولُ تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[٢].

٣ - قال رجلٌ لرسولِ اللّه - صلّى اللّه عليه وسلمَ: يا رسول اللّه أخبرني أمراً في الاسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَك، فقال: «قُلْ آمنتُ باللّه ثم استقم» (٣).

٤ - وقال - صلى اللّه عليه وسلمَ -: «إنَّ من البيانِ لَسحراً» (٤).

٥ - قال أعرابيُ يمدحُ قوماً من العربِ: أولئك قومٌ جعلوا أموالَهم مناديلَ لأعراضِهم.

٦ - قال الرشيدُ في شأنِ البرامكةِ بعد نكبتِهم: أَنْبَتَتْهمُ الطاعةُ، وحَصَدَتْهمُ المعصيةُ.

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الأعراف (٥٤).

(٢) سورة البقرة (١٧٩).

(٣) مسند أحمد/ كتاب سند المكيين/ حديث ١٤٨٧٠.

(٤) صحيح البخاري/ كتاب النكاح/ حديث ٤٧٤٩.

٧ - قال تعالى في حكايةِ يعقوبَ عليهِ السَّلام مع بنيه: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾(١).

٨ - وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾(٢).

٩ - وقال تعالى على لسان العبد الصالح في قصَّته مع موسى عليه السلام:
﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾(٣).

١٠ - وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾(٤).

١١ - وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾(٥).

١٢ - وقال تعالى في حكاية موسى عليه السلام مع ابنتي شعيب عليه السلام: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ ﴾(٦).

البيـــان :

❊ إيجـاز القصـر

في قولِ اللّه تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ ﴾ الحكمُ على كل شيءٍ أنه للّه وحدَهُ، فلا شيءَ من الموجوداتِ جميعِها لاتشملُهُ كلمةُ (ٱلْخَلْقُ)، ولا شيءَ من الأحداثِ والأحوالِ جميعِها لا تشملُهُ كلمةُ (ٱلْأَمْرُ)، فالكلمتان: (ٱلْخَلْقُ) (ٱلْأَمْرُ) استوعبتا كلَّ الأشياءِ والأحوالِ على وجهِ

(١) سورة يوسف (٨٥).
(٢) سورة المائدة (٣).
(٣) سورة الكهف (٧٩).
(٤) سورة الإسراء (٥٩).
(٥) سورة (المؤمنون) (٩١).
(٦) سورة القصص (٢٤) و (٢٥).

الاسْتِقْصاء. رُويَ أنَّ عبدَ اللّه بن عمر – رضي اللّه عنهما – قرأها فقالَ «من بقى له شيءٌ فليطلبْهُ» فهذه العبارة على قِصَرِها استوعبتْ ما لا حصرَ له من المعاني، فاللفظُ قصيرٌ، والمعنى كثيرٌ.

وفي المثالِ الثاني ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ بيانٌ لأثر القصاص في المجتمع لا يمكنُ التعبيرُ عنه إلّا بألفاظٍ كثيرةٍ، فمعنى التعبيرِ القرآنيِّ ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ أنه إذا قُتِلَ القاتلُ قصاصاً امتنع غيرُهُ عن القتلِ، فأوجب ذلك حياةَ الناسِ. فالمعاني الكثيرةُ أدَّتْها عبارةٌ قصيرةٌ.

تأمل قولَ الرسولِ – صلّى اللّه عليه وسلَّم – للرجل الذي سأله قولاً شافياً في الإسلام تجد في قولِهِ – صلّى اللّه عليه وسلَّم – ما لا يُمكنُ أن يَضافَ إليه، ففي قولِهِ (آمنتُ باللّه) تعبيرٌ عن كلِّ ما يتصلُ بالجانبِ العقدي في الإسلام وفي قولِهِ (استقم) تعبير عن كل ما يتصل بالجانب العمليِّ في حياةِ المسلم، وهل الإسلامُ إلا سلوكٌ يحكمُهُ إيمانٌ باللّه؟

انظر في المثالِ الرابعِ «إنَّ من البيان لسحراً» تجد معانيَ الحديث الشريفِ أكثرَ من ألفاظِهِ، فالمعنى أنَّ مِن بلاغةِ القولِ ما يعملُ عملَ السِّحرِ فيُظهرُ الباطلَ في صورةِ الحقِّ، والحقَّ في صورةِ الباطلِ بعد أن يسلب المتلقِّيَ قدرتَهُ على التمييزِ، ويجعلَهُ أسيرَ ما يُخيَّلُ إليه من سحرِ البيانِ.

وهذا النوعُ من الإيجازِ الذي هو تقليلُ الألفاظِ وتكثيرُ المعاني، أو هو تضمينُ العباراتِ القصيرةِ معانيَ كثيرةً من غيرِ حذفٍ، أو هو الذي لا يمكنُ التعبيرُ عن معانيهِ بألفاظٍ أخرى مثلها وفي عدّتِها – يُسمّى إيجازَ قِصَرٍ، وهذا النوعُ من الإيجازِ يقولُ عنه ابنُ الأثيرِ: «هو أعلى طبقاتِ الإيجازِ مكاناً وأعزُها إمكاناً، وإذا وُجِدَ في كلامِ بعضِ البلغاءِ فإنما يوجدُ شاذاً نادراً».

وإيجازُ القِصَرِ على نُدْرَتِهِ في كلام البلغاءِ يكثرُ في القرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريفِ، ومن ذلك الأمثلةُ من الأولِ إلى الرابعِ.

اقرأ المثالَ الخامسَ تجد الأعرابيَّ قد حمَّل عبارتَهُ القصيرةَ معاني كثيرةً، إذ إنه يعني بقولِهِ: «جعلوا أموالَهم مناديلَ لأعراضِهم» أنَّ هؤلاءِ القومَ يبذلونَ أموالَهم حمايةً لأعراضِهم.

وفي قولِ الرشيدِ في المثالِ السادسِ: «أنبتتهم الطاعةُ، وحصدتهم المعصيةُ» بيانٌ لحالَي البرامكةِ، فالمعنى: أكسبتهم الطاعةُ ما نعموا به من غِنَى وجاهٍ وسلطانٍ، وأورثَهم التمردُ والعصيانُ

ما شقوا به من فقرٍ وذلٍّ وانحطاطِ حالٍ، ففي كلمةِ (أنبتتهم) جميعُ أسبابِ الرخاءِ والنعيم، وفي كلمةِ (حصدتهم) جميعُ مظاهرِ الذلِّ والشقاءِ.

فالإيجازُ في الأمثلةِ السِّتةِ الأولى قد تحقَّقَ بتضمينِ العباراتِ القصيرةِ معانيَ كثيرةً من غيرِ حذفٍ، وهذا النوعُ من الإيجازِ يُعْرَفُ بإيجازُ القِصَرِ.

❊ إيجـاز الحـذف:

تأمل المثالَ السابعَ تجد المعنى أنَّ بني يعقوبَ يُقسِمونَ له أنه لا يزالُ يذكرُ يوسفَ حتى يوشكَ على الهَلاكِ أو يهلكَ بالفعلِ، وهذا المعنى يقتضي أن يكونَ القولُ (تاللّه لا تَفْتأ..) ولكنَّ حرفَ النفي (لا) حُذِفَ من النصِّ الكريم لدلالةِ المعنى عليه. فالمحذوفُ من الآيةِ الكريمةِ حرفٌ، والذي سوّغَ حذفَهُ دلالةُ المعنى عليه، وعلى هذا جاء قولُ أبي محجنِ الثقفيِّ وقد أقلع عن شربِ الخمرِ، وقرَّرَ اجتنابَها:

فـلا واللّه أشـربُـهـا حـياتـي ولاأسـقـي بـهـا أبـداً نـديـمـا

يريدُ: (لا أشربُها)، فحذف (لا) من الكلامِ وهي مفهومةٌ منه. فالإيجازُ هنا تحققَ بحذفِ ما يُستغنى عن ذكرِهِ.

وفي المثالِ الثامنِ بيانٌ لجزاءِ الذين يحاربونَ شريعةَ اللّه ورسولِهِ، ويسعونَ في الأرض فساداً، ولكنَّ التعبيرَ القرآنيَّ جعلهم يحاربون اللّه، والحقيقةُ أنهم يحاربونَ شريعةَ اللّه، ولكنَّ حَذْفَ المضافِ (شريعة) جعلهم في مواجهةٍ مع اللّه ليتضحَ ما سيلقون من الخسرانِ المبين، فالإيجازُ هنا تمَّ بحذفِ ما يُفهَمُ من الكلام، ولكنَّ الحذفَ كان أبلغَ من الذكرِ.

ومن ذلك قولُ اللّه تعالى على لسانِ أبناءِ يعقوبَ عليه السلامُ:

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[1]. إذ المقصورُ (واسأل أهل القرية...وأصحاب العير) [2] فحذِف المضافُ (أهل) و (أصحاب) لدلالةِ السِّياقِ

---

(١) سورة يوسف (٨٢).

(٢) العير: الإبلُ التي تحملُ المتاعَ.

عليهما إذ لا يكونُ السؤالُ لغيرِ العاقلِ، ولكنَّ الحذفَ كان أبلغُ من الذكرِ، فظاهرُ الآيةِ يعني أنَّ يعني أنَّ غيرَ العاقلِ يدركُ صدقَ قولنا فما بالُكَ بمن يعقلُ؟

تدبّر المثالَ التاسعَ تجدْ أنَّ العبدَ الصالحَ تعمَّدَ إعابةَ السفينةِ التي يعملُ عليها في البحرِ مساكينُ لا غنى لهم عنها، وكان وراءَهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً، فما ظنُّك بالسفنِ التي كان الملكُ يأخذُها؟ إنها – ولا شكَّ – السُّفنُ الصالحةُ، فأصلُ العبارةِ (وكان وراءهم ملك يأخذ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ غصباً)، فحُذفت الصفةُ (صالحة) لدلالةِ السِّياقِ عليها، وهذه الصفةُ المحذوفةُ أضافت إلى المعنى ما هو زائدٌ على اللفظِ ليتحقق الإيجازُ بالحذفِ.

وفي المثالِ العاشرِ نستدلُّ على معنى زائدٍ على اللفظِ، فليس المرادُ أنَّ الناقةَ كانت مبصرةً، ولم تكن عمياءَ، ولكنَّ المرادَ أنها كانت آيةً مبصرةً أي يُستَبْصرُ بها، وإنما استُدِلَّ على المحذوفِ من صفتِهِ التي قامت مقامَهُ.

ولايقفُ الإيجازُ بالحذفِ عند حدودِ حذفِ كلمةٍ كما لاحظنا في الأمثلةِ السابقةِ من السابع إلى العاشر، ولكنَّه يتعدّى ذلك إلى حذفِ جملةٍ أو أكثر، فكلمةُ (إذن) [1] في المثالِ الحادي عشر ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(٢). في سياقِها تدلُّ على شرطٍ محذوفٍ، لأنَّ تقديرَ الكلام: (إذ لو كان معه آلهةٌ لذهب كلُّ إلهٍ بما خلقَ ولعلا بعضهم على بعض)، فالجوابُ المصدَّر بإذن جاء دليلاً على الشرطِ المحذوفِ.

ومثلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[3]. أي: إذ لو فعلتَ ذلكَ لارتابَ المبطلون.

---

(١) تنوينُ (إذاً) الجوابيةِ يُكتبُ ألفاً في رأي البصريين لأنَّ الوقفَ عليها بالألفِ، ويُكتبُ نوناً في رأي الكوفيين للتفرقةِ بينها وبين (إذا) الفجائيةِ و (إذا) الظرفية.

(٢) سورة المؤمنون (٩١).

(٣) سورة العنكبوت (٤٨).

اقرأ قولَ اللّه تعالى في حكايةِ موسى – عليه السَّلامُ – مع ابنتَيْ شُعَيْب – عليه السلامُ –

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾. تَجد أن التتابعَ المنطقيَّ للأحداثِ يكشف عن جملٍ محذوفةٍ، إذِ التسلسلُ الطبيعيُّ للحدثِ أن يقالَ: فذهبتا إلى أبيهما، وقصَّتا عليه ما كان من أمرِ موسى، فأرسلَ إليه، «فجاءته إحداهما تمشي على استحياء...» فالإيجازُ هنا تم بحذفِ جملٍ عدةٍ دلَّ عليها السياقُ دلالةً واضحةً بحيث يعدُّ حذفُها أكثر إبانةً من ذكرِها إذ يُصاغُ المحذوفُ في خيالِ المتلقي صوغاً نابعاً من ذاتهِ غيرَ مُجانبٍ للصوابِ.

ومثلُ ذلكَ قولُ اللّه تعالي في قصةِ سليمانَ والهدهدَ وإرسالِ النبيِّ كتاباً إلى بلقيسَ: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

فالمحذوفُ هنا أكثرُ من جملةٍ، ونظمُ الكلامِ من غيرِ حذفٍ أن يقالَ: فأخذ الهدهدُ الكتابَ، وذهب به إلى بلقيسَ، ولما ألقاه إليها قرأته، وقالت: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾[2].

الخلاصة:

- الإيجازُ جَمْعُ المعاني المتكاثرةِ تحت اللفظِ القليلِ مع الإبانةِ والإفصاحِ، وهو نوعان:
أ – إيجازُ قِصَرٍ، ويكونُ بتضمينِ العباراتِ القصيرةِ معانيَ كثيرةً من غيرِ حَذْفٍ.
ب – إيجازُ حذفٍ، ويكونُ بحذفِ كلمةٍ (٢) أو جملةٍ أو أكثرَ مع قرينةٍ تُعَيِّنُ المحذوفَ.
- إيجاز القِصَرِ كثيرٌ في القرآنِ الكريمِ والحديثِ الشريفِ، نادرٌ في غيرهما.
- لا بدَّ في إيجازِ الحذفِ من قرينةٍ تعيِّنُ المحذوفَ.

---

(١) سورة النمل (٢٧– ٣١).

(٢) الكلمةُ المحذوفةُ قد تكونُ حرفاً، وقد تكونُ فعلاً، وقد تكونُ اسماً، والاسمُ المحذوفُ قد يكونُ مضافاً، وقد يكونُ موصوفاً، وقد يكونُ صفةً.